

ANCORA IMPARO



الْفُصُوءُ

فبراير ١٩٣٠ اعرف نفسك بنفسك - فيتاغورس مجلد ٦ العدد ٣٠

من بقاء الاصالح

الى بقاء الاصلاح

From the Survival of the Fittest,
To the survival of the unfit.

في سنة ١٨٧٨ نشر اسباني من رجال المستعمرات المشتغلين بالعلم هو دكتور شيلى مارانجو مؤلفا عن جزر الكناري. غير أن الدكتور شيلى اسوء حظه قد ضمن مقدمة الكتاب استعراضا لخص فيه نظرية النشوء، وذكر بعض البراهين التي عثر بها في جزيرة كناري عما كانه في الأزمان القديمة من بربرية الانسان البدائي. ولقد فزعت السلطات الكنسية، وعلى رأسهم الأسقف « بيدوت » من الاستكشاف الجديد، معلناً في حماسه أنه « خطأ فاضح بعيد عن التقوى ». ولقد صدرت الأوامر الى كل الذين كانوا يحوزون نسخا من الكتاب أن يسلموا كل النسخ التي لديهم للسلطات الكنسية كما طرد المؤلف من حظيرة الكنيسة

على هذه الصورة كانت العقيلة الكنسية في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر الذي قيل بأنه عصر العلم، كما كان القرن الثامن عشر عصر التأمل. عصر حضر فيه على

علم من العلماء أن يقول كلمة يظهر بها رأيه في مذهب على بعد أن نشر مذهب
النشوء في أوروبا بنيف وربع قرن من الزمان على القواعد التي وضعها داروين ،
وبعد أن أثبت مارش في أمريكا صدقه في الحفريات وفون باير في ألمانيا صدقه في
الأمبر يولوجيا ، والاستاذ هكسلي في إنجلترا صدقه في التشريح .

غير أن الصور العدائية التي ظهر بها اللاهوت في أواخر القرن الفارط يمكن أن
تعتبر آخر درجات الحمى التي أتاها أهل الأديان إزاء العلم . والدليل على صحة هذا
القول أن جامعة واشنطن - وكانت حديثة التكوين في أواخر القرن التاسع عشر - قد
أعلنت من ناحيتها أقوالاً تؤيد نظرية النشوء الجديدة كما أن جامعات كثيرة في العالمين
القديم والحديث ، قد قبلت نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعي ، واكب رجالها على
المذهب يدرسونه بما يستحق من العناية والتقدير . فضلاً عن هذا فإن من الظاهر
الجلي أن رجال الكنيسة العظام لم يقفوا فقط سيرة المعركة التي دارت ضد العلم بل
عملوا في أمانة و إخلاص لكي يضعوا قواعد جديدة للتوفيق بين الناحيتين .

ومهما يكن من أمر العوامل التي يمكن اضافتها الى الانتخاب الطبيعي - ولقد
سلم داروين نفسه بأنه من الممكن أن تكون هنالك عوامل أخرى تؤثر في نشوء الأنواع -
فإن نظريته في النشوء الكوني ونشوء الصور الحية قد وضعت وثبتت قواعدها ، كما أن
نظرية الخلق المستقل القديمة قد اضمحلت وفنت من عالم الفكر الانساني . ولقد تبدل
الانسان منها بما أوحى العلم الحديث من تصورات ثابتة أبعد مدى . وأبل قصداً ،
فتحت الباب لتكوين فكرة في « القصد والغاية » اجمل من كل الأفكار التي كونها
التصور اللاهوتي على مدى الأزمان (١)

هذه الصفحات القصيرة تعرفك شيئاً عن تاريخ الصراع بين اللاهوت والعلم
إزاء مذهب النشوء ، وتعرفك فوق ذلك أن المعركة كانت حامية الوطيس شديدة
المراس . وليس من قصدنا أن نمضي هنا في سرد الاسباب التي سببت هذا الصراع

(١) راجع كتاب بين الدين والعلم الذي ظهر حديثاً عن دار العصور ص ٣١١

والحالات التي قامت في ذلك العصر الذي تحددت فيه نظرية النشوء على الصورة التي صيغ فيها العلامة داروين ، بل مهدنا بذلك للكلام في مشكل اجتماعي ظهرت بوادره في المدينيات المتتالية . وكانت آثاره السواى . تزداد سوءا كلما خبطت المدينيات إلى الأمام خطوة بعد أخرى ، فكانت ظواهر هذا المشكل الاجتماعى في المدينيات البدائية أقل ظهوراً منها في المدينيات المتوسطة كمدنية المصريين والسكندران ، ثم زاد خطرهما في مدينة اليونان والرومان والعرب ، وهى في مدينتنا الحديثة أبين صورة وأنفذ أثرأ منها في كل المدينيات الأخرى . ذلك المشكل الاجتماعى ينحصر في أن الإنسانية قد قلبت الآفة من قانون طبيعى هو بقاء الأصلىح ، فظهرت في بعض نواحي المجتمع عاملة جادة لأحياء سنة تخالف هذه السنة الطبيعية ، وبهذا أصبح الطابع الجديد في المجتمع انتقال من الخضوع إلى سنة بقاء الأصلىح ، إلى الاستمتاع بشمرات حالات متراوحة غير مستقرة ، تعمل أبدأ على بقاء الأطلح من أفراد المجتمع وطبقاته .

إن أول ما يستلفت نظر الباحث في تاريخ التطورات التي اتتبت المذهب الدراوينى الحديث الذى يتلخص في النشوء بالانتخاب الطبيعى ، أن هذا المذهب لم يكد يفض عنه غبار الطفولة في أواخر القرن الفارط ويستقر على أساس طبق فيه على عالم الحياة المادية ، حتى أخذ العلماء يطبقونه على عالم الاجتماع . لهذا يجب علينا أن نوجز شرح النواحي التي طبق فيها المذهب على الاجتماع الانسانى ليكون هذا الشرح أساساً لما سوف نستنتج من هذا البحث .

نشر العلامة « سبنسر » الفيلسوف المعروف ، قبل أن يظهر كتاب أصل الانواع بتسع سنوات ، في فصول اختتم بها كتابه « التعادل الاجتماعى » فكرة في تعليل الجماعات الانسانية على قاعدة أن تكوين الجماعات انما يرجع إلى طبيعة بشرية تنزع بالانسان إلى المكافأة بين طبائعه وحالات الحياة المحيطة به . وكانت هذه الفصول النواة التي كبرت فيما بعد فصارت الأجزاء الضخام التي أخرجها سبنسر في صورة فلسفة انسيكلويدية في النشوء سماها الفلسفة التركيبية . وبعد ذلك بخمس سنوات ،

وقبل ظهور كتاب أصل الأنواع بأربع سنوات، تناول سبنسر في الطبعة الأولى من كتابه ومبادئ علم السيكلولوجيا، تحليل الحياة مادية ونفسية، وعزاها إلى أنها عبارة عن تقابل بين الصلات الداخلية في الأحياء، وبين الصلات الخارجية للأشياء المحيطة بها. وفي سنة ١٨٥٧ - أي قبل ظهور داروين بكتابه الخالد بسنتين - نشر سبنسر في مجلة « وستمنستر » مقاله الكبير المعروف « الارتقاء : سببه وأسبابه » الذي عبر فيه عن مذهب جزئي في النشوء، معلناً أن النشوء هو النظام الكلي الذي يخضع له الكون وكل ما فيه من صور الحياة والجماد

إذن فقد عرف سبنسر أن النشوء يتلخص في أمرين : مكافآت وتغيرات . ولقد تبع هذه الأبحاث نشر كتاب أصل الأنواع الذي تناول نشوء الصور الحية بالانتخاب الطبيعي . غير أن المعركة لم يحجم وطيسها إلا سنة ١٨٧١ عندما نشر داروين كتابه « أصل الإنسان » . ذلك لأن مذهب الارتقاء الإنساني أخذ يفهم في الدوائر العلمية على أساس من التصورات الثابتة المقرونة بالاستقراء الواقعي من المشاهدات الطبيعية . ولقد أدرك الفيلسوف سبنسر مقدار ما في سنة الانتخاب الطبيعي من أثر في المجتمع الإنساني، كما أدرك داروين أثر تطبيق المذهب على الجمعية البشرية يحتاج إلى تفسير كيف أن التناحر على الحياة بين الجماعات - على ما فيه من صور القسوة والشدة - ينتج في النهاية ثماراً من الآداب العليا، غير أنه لم يتم إلا لسبنسر ولداروين أن يكون أحدهما أول غائص وراء الدرة المستقرة في أعماق بحر النشوء المتلاطم الأمواج بصور النظريات المتكاثرة، وبقي استكشاف النشوء العالمي من حظ العلامة الكبير وولتر بيجهوت محرر مجلة « لايكونومست اللندنية » إذ كشف عنها في كتابه المعروف باسم « الطبيعيات والسياسة : أوقكرات في تطبيق مبادئ الانتخاب الطبيعي والوراثة على الجمعيات السياسية » وكان الكتاب عبارة عن مقالات نشرت تباعاً في مجلة « الفور تلتلي » بدءاً من شهر نوفمبر سنة ١٨٦٧ . ولما جمعت هذه المقالات في صورة كتاب خرجت في قطع من الحروف الكبيرة فلم تزد صفحاته على ٢٢٣ صفحة . غير أنك لن تقع في الأبحاث التي دارت حول هذا الموضوع على بحث أكثر ابتكاراً أو قوة فكر أو سلاسة تعبير أو استهانةً في إدراك السببية الاجتماعية

أى علاقة الاسباب بالمسيبات فى الاحتماع - عما تقع عليه فى هذه الصفحات القليلة منذ أن نشرت حتى اليوم .

فى كتاب ، التعادل الاجتماعى ، أظهر سينسر أن الانسان البدائى لما اضطرب الى الاحتفاظ بحياته بان يستوى على الانواع الاحط منه مرتبة فى عالم الاحياء ؛ نزع الى القتل والقسوة ، بأنيهما غير عابى ولا مفكر فى شىء . غير أن أعتاقه ؛ بعد أن تم لها الانتصار على غيرها من الانواع الدنيا . وورثت عن أوائها عالما خاضعا لارادتها ولم تجد من حاجه تدعوها الى القتل والتفطيع ، من الجائز أن تكون قد عمدت الى التعاون المنتج فى ميدان العمل السلى ، بعد أن فرخت فى أعماق نفوسها أصول العطف النوعى . وعند هذا الحد وقف العلامة سبدر فلم يستطع أن يدرك أو يصور بالاستقراء حقيقة العلاقة الواقعة بين هذا النظام وتكوين الجماعات ، أو بينه ، وبين الجهد الضمى الذى يبذله مجموع متعاون بعد أن يتكون فى وحدة اجتماعية .

ولقد كانت حقيقة التناحر الضمى - Collective Conflict لدى قياسه بالتناحر الفردى على البقاء ، هى الحقيقة التى وقع للعلامة « بيجهوت » ، ان يمتحنها ويدرسها فلم يلبث أن نفذ ببصيرته الى نواة الموضوع — قال :

(إن ارتقاء الفرد يتطلب تعاون المجموع لينمو ويشمر . أما المبدأ الاول فى هذا النظام فهو أن الانسان لا يستطيع أن يرتقى الا فى « مجموع متعاون » ، وقد يصح أن أقول قبائلا وأما ؛ غير أنى استعمل اللفظة الاقل شيوعا ، لان الناس قد يرون أول وهلة أن القبائل والامم هى فى الواقع مجموع متعاون ، وأن تعاونهم هذا هو السبب فيما لهم من قيمة وجدارة فى الحياة ، وانه مالم تحدث فى جمعية من الجمعيات رابطة تعاونية قوية ، فإن هذه الجمعية لا تلبث أن تغزوها وتفنيها جمعية أخرى اكتسبت رابطة التعاون . أما المبدأ الثانى فإن أفراد مثل هذا المجموع يجب أن يكون بينهم قدر من المماثلة بعضهم لبعض يكفى لان يحفزهم الى التعاون الايجابى السريع . على ان التعاون فى كل الحالات المشابهة لهذه انما يرجع الى « شعور بالوحدة » قلبا وروحا . وهذا الشعور بالوحدة لا يمكن استيعابه ، الا بعد أن تحدث درجة من المماثلة الصحيحة فى العقلية والمشاعر بصرف النظر عن الاسباب التى تحدث هذه المماثلة ،

ولقد أراد مستر « بيجهوت » ، بعد ذلك أن يعلل كيف تستحدث المماثلة فى العقل

والشعور في الجماعات فاجاب على ذلك بأنها انما تستحدث من طريق استبعاد لم تر له مثيلا في كل تجاريتها الاجتماعية، الا وهو استبعاد « قانون العادة » — Customery Law — ومن أجل أن يعزل حدوث العادات الاجتماعية ومقدار قوتها وأثرها في الاجتماع، وضع نظرية ضمنها خصائص المحاكاة أو التقليد. فان العادة من شأنها أن تحدث بمائلة ما بين الوحدات الاجتماعية، وتفرض عليها حياة غير متغيرة ولا متحولة بحيث تصبح هذه الحالة عقبة كبيرة في سبيل الارتقاء والتغير من حال الى حال. لهذا يقول « بيجهوت » ان ادخال عناصر التغير وخلق نزعة الى الارتقاء في جماعة تحكمت فيها التقاليد، أحد الاشياء التي تفيد الجماعات في مناحراتها العديدة وعلى هذا يسير التطور الاجتماعي في ظل معارك تقوم بين النزعات المتنافرة، قسم منها في جانب الاستمرار والبقاء على التقاليد، والقسم الآخر في جانب التغير وتحقيق الاستقلال الفردي، وقد تنسود في فريق من الجماعات إحدى هاتين النزعتين. فإذا تساوتا من حيث القوة في جماعة من الجماعات التي تتناحر وجماعات أخرى، فإن الالبقى في التناحر على البقاء هي الجماعات التي تن فيها النزعتان وتتساويان بحيث يصبح اثر انهما سبيلا تريح به الجماعة صفات الغلبة الضمانية. ولا جرم أن « مستر « بيجهوت » قد وضع بشواهد هذه نظرية ثابتة من النظريات المعتمد عليها في علم الاجتماع الحديث ولقد عقب « داروين » على « بيجهوت » في كتابه « أصل الانسان ». ففى الفصول التي بحث فيها العادات الاجتماعية والكفايات الادبية في الجماعات، اتحل النتائج التي وصل اليها بيجهوت، ثم زاد اليها أشياء تعتبر أساسية في هذا البحث، فقال بان أربعة حالات اجتماعية يمكن للجماعات من سبيلها أن تفوز بالتفوق الاجتماعي خلال الصراع الذي يقوم بين الطوائف الانسانية. وهذه الحالات الأربع هي :

أولا — الاتحاد الجمعي أو القبلي كسبب للتفوق في التناحر بين الجماعات

ثانياً — العطف المتبادل كمؤثر في إيجاد الاتحاد الجمعي .

ثالثاً — أهمية الوفاء المتبادل والشجاعة الغيرية .

رابعاً — الدور الاكبر الذي تلعبه ظاهرة الميل إلى المدح والزهدي في النظم

في خلق صفات الشجاعة الغيرية والوفاء المتبادل .



الفرد روسل وولاس

وفي هذه الاشياء الاربعة وجد داروين جواباً لسؤاله : كيف ، مع قيام الحالات التي يجب أن تقتزن بالتناحر على البقاء ، يمكن للصفات الاجتماعية والادبية أن تجد فسحة تنفذ منها تدرجاً إلى حيث ترتقى وتتطور وأن تنتشر بين الناس في أنحاء الدنيا المعمور .

لقد أظهر الكونت « كروبو تكين » الروسى بكتابه « التعاون المتبادل بين الحيوان كمؤثر نشوئى » أن كلا من مستر « بيجهوت » والعلامة « داروين » قد ترك في ميدان البحث في المشاعر الاجتماعية والتعاون المتبادل ثغرات سدها هو بكتابه هذا . وكان قد نشره في مقالات ظهرت على صفحات مجلة القرن التاسع عشر . ولقد طبق كروبو تكين بعد ذلك نظريته في التعاون المتبادل بين الحيوانات ، على جماعات البرابرة والمتوحشين في أنحاء العالم . على أن هذه المقالات لم تبشر للناس بنظرية جديدة ولا هي وافهم بعلم جديد في سبيل مستحدث من سبل النشوء . ولكن كاتبها قد استجمع خلالها كثيراً من الشواهد والبراهين المؤيدة لحقيقة أن الدور الذى لعبته صفات العطف والتعاون في التناحر على البقاء كان عظيماً هائلاً . كما أظهرت الى أى حد من الخطأ يذهب الذين يفسرون الانتخاب الطبيعى بأنه عبارة عن تغلب الاقوى والاقسى والاحيل .

إذا اعتبرنا هذه الحقائق وتأملنا منها ملياً ، وعرفنا أن تفوق الجماعات راجع الى « مماثلة » تكون بين العقليات والمشاعر في الافراد التى تكون هذه الجماعة ، ثم تبصرنا فيما انتجت المدنية الصناعية من نزعات في مختلف نواحي الحياة الضمانية ، فالتنازل لانبث أن نحكم بان المدنية سائرة اليوم نحو تقييد قانون بقاء الاصلح باوضاع تؤدى حتماً الى بقاء الاطلاح من قلوب الجماعات العظمى ، كما يسميها « جراهام والاس » في كتابه —

The Great Society

ولاجرم أن تقسم طوائف الجماعة الى فئات تتخذ كل منها صفة من الصفات التى تؤدى الى السقوط في معركة التناحر على البقاء الاجتماعى والانزهام في معمعة الاستقلال الذاتى سبيل الى تفوقها ، ضرورى في مثل هذا البحث . بهذا تقسم الطوائف التى تحاول البقاء من طريق مضاد لما تتطلب حياة الجماعة لتكون جماعة غالبية في الحياة الى ثلاثة أقسام :

الاول - الذين يتطلعون الى النشوء من ناحية القوة

الثاني - الذين يحاولون التغلب من ناحية القوة

الثالث - الذين يطلبون الحياة الوادعة من ناحية الحياة

وانت ان تطلعت في نواحي المجتمع الخاف بك اليوم لا ترى إلا أحد هؤلاء يرميك إما بقوة يخضعك بها ، وإما بقسوة يسلبك بها ، وأما بحيلة ينزع بها منك اسلحتك الاجتماعية .

ولقد كانت جماعات المدينة الحديثة أشد شعورا بحاجتها الى صفات التعاون الاجتماعي خلال سني الحرب منها في هذا العصر الذي علت فيه صيحة السلام وقامت عصبة الامم شبحا تطلع اليه الامم ليدفع عنها غائلة الحروب . وكلما ازداد الناس اطمئنانا للسلام ازدادوا لزوما لعادات سوف تزيد في انفسهم حب الغلبة في احدى هذه الطرق الثلاث ، فاذا تذكرنا أن هذه الطرق الثلاث هي الدعامات الاولى في التطرف الاجتماعي استطعنا أن نحكم بان مدينة العصر الحاضر تختص بصفة جليلة بينة هي صفة القضاء على الاصلح في سبيل الاحتفاظ بالاطلاع من افراد المجتمع .

اسماعيل مظهر

يا حياة

ألم أنت يا حياة مباد أو مداج ينسل في الآمال
وياض النهار فيك على الرغم من الشمس في سواد الليالي
أنت شوها غير أن الاماني ظلما غررت بمرأى جمال
فاذا أنت فتنة النفس تصبين اليك على هدى وضلال
والاماني لوعة النفس حالت قبا في ظلام ليل الخيال
فتخال النفوس حتى اذا أو قط منها أعيت على الاغلال
والمقادير تلعب اللعب الأخرق بين أسراك بالاهوال
والتداعي بالصبر ملتجأ اليأ سر أمنا أم لم شب بامتثال
عبد اللطيف ثابت